المشرق

السنة الحادية والثلاثون — تموز ١٩٣٣

الحياة في بيروت قبل الاسلام*

بقلم الاب لامنس اليسوعي

١

انه لعملٌ صعبٌ دقيق ان يفيض الانسان في مدح الاشخاص الاحياء . فان «الجبال ، كما يقول الكتاب المقدَّس ، يذوي كزهر الحقول.» وليس اقل من ذلك صعوبة وجرأة ان يقوم بالثناء على المعاصرين . ولهذا ينصح لنا الكتاب الكريم بان ننتظر ريثما تكون الابدية قد خلّدت اولئك الاشخاص . والحال ان بيروت ، موضوع بحثي اليوم ، كائن حيّ دائم حتى ان الجغرافي الكبير اليزي ركلو لم يتردّد في ان يمنحها شهادة الدوام غير المنفصم فقال ان بيروت من المدن التي يجب ان تعيش ، وانها لتعيش مها تقلّبت الاحوال.

على اني تجنُّباً للاتهام بالتزلّف ، وتبعاً لنصائح الكتاب الكريم ، ساحصر

*) محاضرة القيت في كلية القديس يوسف

٣١

كلامي في العصور الماضية . واذاً فستكون بيروت التي سأجتهد في اطلاعكم على شيء من مظاهرها ، تلك المدينة القديمة النائمة آثارها تحت ارضنا هذه . واني ارغب اليكم في ان تقطعوا معي حاجز التاريخ الهجري الذي يفصلنا عن مدينتنا القديمة ، واذا بنا امام تلك الجدّة الجميلة المقاطع ، على شيخوختها ، الجذابة القسمات ، وقد زانتها التزاويق الرومانية والبيزنطية . قفزة واحدة تردّنا اكثر من ثلاثة عشر قرناً الى الوراء ، واذا بنا في « بيروت السعيدة مستعمرة جوليا اغوسطا » ، في بيروت يوستنيانوس ، في بيروت الشهيرة بمدرستها الحقوقية الحافلة بالاساتذة الذين دعوا من « معلمي المسكونة » والذين اعدّوا مجموعة الحق الروماني .

***

ولا يؤخذنّ من كلامي اني خصصت هذه الحقبة بالذكر ، لعدم وجود الشواهد على محاسن بيروت العثمانية . فان احد زملائي بالرهبنة من اهل القرن السابع عشر ، وهو الاب بسّون (P. Besson) ، يؤكد في كتاب عجيب خصّه « بسورية المقدسة » ان تجار الفرنجة في سورية ، على عهده ، كانوا يدعون بيروت « باريس الموارنة الصغيرة » . ولكن باريس هذه ظلّت صغيرة ، فلم تتقدم قيد شمرة على مدة قرنين كاملين . يظهر هذا من تلك الصورة التي رسمها لبيروت الرحالة پوجولا سنة ١٨٣١ فقال : « قبب ومنافذ سرّية ، ومجازات مظلمة ، واسواق ضيّقة ذات تعاريج . كل منزل فيها يكوّن شبه حبس مظلم لا يوصل اليه ، ولاسيا في الحيّ الاسلامي . »[1] ولا شكّ ان من ترتقي تذكاراتهم الى ما وراء اربعين سنة من سكان بيروت الحالية يعرفون في هذه الصورة بعض الخطوط الحقيقية للمدينة القديمة . ولم تمرّ سنة على وصف پوجولا حتى وصل لامرتين الى بيروت ، سنة ١٨٣٢ ، فأخذ منذ يومه الاول ، لا بالمدينة بحصر المعنى ، بل بما ستحدّده قريباً بمحاسن فنيقية . وهو يؤكد ان الرومانيين ألهموا حقاً اذ دعوا بيروت بالسعيدة (Felix) . ويزيد ان بيروت استحقت ذاك اللقب

(1 *Correspondance d'Orient*, VII, 70

« لمناخها الذي لا يقابله مناخ ، ولمركزها الفائق الجلال . »

وقد قضى لامرتين بيننا عدة اشهر كأنه في حالة وجد دائم ، او في حلم نوراني لم يقطعه الا وفاة ابنته الوحيدة جوليا . وليحكم المطالع على هذه الحالة بقراءة المقطع التالي المأخوذ من« رحلته الى الشرق » : « ذهبت ، هذا الصباح ، هائماً على القمة التي يدعوها الروم مار ديمتري . . . وكنت في صغري كثيراً ما اتخيل هذا الفردوس الارضي ، عدن هذه التي لا تزال في تذكارات الامم كلها كأنها حلم جميل ، او تقليد راقٍ الى زمن اتمّ وحالة اوفر كمالاً ، وقد تبسطُ ملتون في اوصافه الخلابة لهذا المكان السحري الذي اقام فيه ابوانا الاولان . ولكن هنا ، كما في كثير من الامور ، ارى انّ الطبيعة تفوق المخيلة بما لا يُقاس . ولم يعطِ الله الانسان ان يحلم بكل ما صنعه من الجمال . لقد حلمت بجنة عدن ؛ اما الآن فيمكني القول انني رأيتها . »

هذا ولا اخال احداً منكم يجهل الحادثة المرويّة في سفر استير . وكيف ان الملك احشورش ، بعد ان خلّصه مردخاي من الموت ، سأل رجال بلاطه عن الجائزة التي اعطوها المخلص . فكان الجواب انهم لم يعطوه شيئاً . ولولا الحفلات التي اقيمت مؤخراً تذكاراً للامرتين ، لكان جوابنا يقرب من جواب احشورش . ومها قمنا بشكر لامرتين ظلّ ذلك قليلاً بالنسبة الى الاعلان المجاني المجرّد الذي عرّفنا به الى قرّاء تآليفه وهم كثيرون . لقد قامت بلديتنا في ما مضى بتسمية شارع باسم « شارع الشعر » ، وهو « شارع هوتلن » الحالي على ان الشعر يدعو اسم شاعر خاصّ . فلماذا فُضّل فيكتور هوغو على لامرتين فخص به احد شوارع بيروت ، وليس في تآليفه الضخمة ذكر واحد لمدينتنا ، بينا نرى لامرتين لا يبدع في وصف بيروت فحسب بل يجعل في مدينتنا الفردوس الارضي .

وهاكم ، بعد ذكر الشاعر ، ذكر كاتب وصّاف مرّ في بيروت ، سنة ١٨٥٠ ، مرافقاً فلوبير ، مؤلف سالامبو . وهو ايضاً قد تأثر بجاذبية بيروت . واليكم ما يقول عنها : « ان كونكا دورو لحسنة في بالرمة ، وان خليج نابولي لجميل ؛ اما بيروت فلا مثيل لها . لا المدينة نفسها ، وهي فقيرة لا عظمة فيها ، بل

البرّية التي تحيتها ، غابة الصنوبر ، الطرقـات التي تحيط بهـا اغراس الصبار ، والآس ، والرمّـان حيث تتراكض (كذا) انواع الحرباء[1] ، بل مشهد البحر المتوسط ، ومنظر قمم لبنان الشجراء وقـد رسمت على اديم السماء خطوطهـا الدقيقة الواضحة . هي عزلة نافعة ورياضة روحية لمن رغبوا في التـأملات ، او خدعتهم الآمال ، او جرحهم الوجود . يظهر لي ان النـاس يمكنهم هناك ان يعيشوا سعداء اذا ما اكتفوا بالنظر الى الجبال والى البحر . وكم من مرّة ، في ساعاتي المؤلمـة ، حلمت بدافع يحملني على ان التجئ الى هنا فادخل تلـك الطمأنينة التي توليها مشاهدة الطبيعة . » على ان ما يفسـد ، وان قليلاً ، هـذا الوصف اللذيذ ، هو تلك النبرة الضجرة القانطة التي يزيدها الكاتب الباريسي فيقول : « اظن اني لو اقمت هاهنا لكنت اموت ضجراً ، اقول هذا اذ أرى السرعة التي تدفع التجـار الاوربيين الى اختطاف الرسائل القليلة الواصلة بالبريد .»

***

ولكن لنعد الى بيروت القديمة ، او بيريت ، مستفيدين من هذه الشواهد ان حسن بيروت الفائق الدائم يستند خصوصاً الى مركزهـا العجيب ، في وسط فنيقية ، على ساحل لبنان ، حيث يتحد الجمال الساحر بين السماء والبحر والجبال . وهو ما يُستفاد ايضاً من قول اميان مرسلان السوري ، آخر مؤرخي السلاتين المشاهير ، اذ يصف فنيقية فيقول عنها :« فنيقية مستندة الى جبل لبنان ، وهي ارض ملأى بالبهجة والحسن . » هذا التضادّ العجيب في المشاهـد الفنيقية اذ يتقابل البحر والجبل ، وهذا السكون الهادئ في الحقول الممزوج بضجة الحياة البحرية وصخبها ، هو ما وصفه ننوز(Nonnos)شاعر عصر الانحطاط البيزنطي الذي سوف اكثر الشواهد من شعره في ما بعد . وهو يقول : « في هذا المكان ينفخ راعي البقر في شبّابته على شاطئ البحر المرمل ، فيجتمع بالنوتي ؛ كما يجتمع راعي الماعز والصياد اذ يجرّ شبكته من بين المياه . يخطّ الحراث ثلمة ، فيصل بها

١) وهو يريد صغار الوزغ لان الحرباء لا تركض

الى ملتقى المجاذيف التي تشقّ الامواج . وفي وسط غابة قرب البحر يجتمع الملاحون فيتحادثون مع الحطّابين ، بينا يترافع هدير المياه ، وخوار الابقار ، وحفيف اوراق الشجر . مشهد الجبال والشجر ، والملاحة والغابة.» [1] وان هذا المشهد ليذكرنا بمشهد آخر اقرب الينا جدًّا من وصف ننوز ، وهو الوصف الذي يبتدئ به الاخوان تارو كتابهما في « طريق دمشق » ، واصفين سحر الجمال في فنيقية ، مستندين خاصة الى المقابلة والتضاد « بين البحر المتلألئ واوفر جبال العالم اخذًا وتأثيرًا ــ هناك تتراكم الصخور الزرقاء او البنفسجية ، والغابات والبساتين ــ والثلج يكلّل القمم مدة طويلة من السنة . اما الساحل فحيناً يستطيل قفرًا من الرمال والحصى ، وحيناً يرتفع شرفةً على البحر المتوسّط ، وتارةً يؤلف ، بين الجبال التي لا تبعد منه ، خلجاناً عميقة من المزروعات الخضراء ينبت فيها الزيتون والتوت والليمون والكرم وتتقدم حتى بجزر الموج بين القمح والشعير . . . »

جمال بيروت الفتان غير المنفصل عن ساحل فنيقية وجبال لبنان ! فما قولنا في احلام رجال السياسة من ذوي الاخيلة المشؤومة الذين ارادوا ان يفصلوا مما جمعه الله في هذه الوحدة الساحرة ؟ اين لي شعر ننوز إذ يستوحي آلهة لبنان في بدء نشيده الحادي والاربعين فيصف جمال بيرُوه ، الهة الماء الحاملة اسم بيريت ! ولكن الآلهة ابعد من ان تجيبنا ، فلنسأل العلماء والمؤرخين . قام احد علماء الالمان ، المدعو ستروخ ، منذ ثلاثة قرون فألف اطروحة لاتينية بعنوان بيريتوس (*Berytus*) خصّها بوصف مدرسة الحقوق القديمة في مدينتنا . ولا تزال مكتبتنا الشرقية تحفظ نسخة من هذا الكتاب النادر الوجود . واذا اخذنا بقول صاحبه، رأينا ان مؤسسي الجامعات لم يكونوا يضعون الحجر الاول الا بعد ان يقوموا ببحث دقيق عن جمال الموقع واخلاق السكّان . ثم يؤكد ستروخ بكل رزانة، في ما خصّ مدينة بيروت ، انه لم يكن بامكان الالهة تيميس ، التي عاونتها

---

١) ننوز : ملحمته في ديونيسوس النشيد ٤٠ : الابيات ٣٤٠ . . .

مبرقًا نفسها مع جمهور الالاهات والبهجات ، ان تختار مشهدًا اجمل ولا مكانًا اوفق .

وكانت تلك الجامعة الفقهيـة التي أنشئت في العصر الرومـاني ان لم تقل بعناية الامبراطورية الرومانية . على ان الامبراطرة اظهروا عليها عطفًا خاصًا ، كما انهم عملوا دائمًا على تعزيز بيريت في مختلف الاحوال . فكانت غاية سياستهم ان يحوّلوا المدينة الى مركز « روماني محض » ، كما يقول القديس غريغوريوس العجائبي . فانعم عليها الامبراطور اغسطوس بلقب « المستعمرة الرومـانية » ثم اعطاها « الحقّ الايطالي » ملحقًا ارضها بالارض الرومانية نفسهـا ، وهو شرف نادر جدًا خارجًا عن منطقة ايطالية . وقد اقام فيها فرقتين من قدماء المحاربين . وما فتئ يعمل على تحسينها ، هو وخلفاؤه ، بانين فيها المراسح ، وميادين السباق ، والحمامـات ، والشوارع ذات الابواب والقناطر . وقـد زاد الملـك هيرودس وابناء اسرته في عدد هذه الآثار ، اذ رأوا انهم بهـذا الامر يفوزون برضى الامبراطور . ولا يسعنا هنا الّا ان نتساءل عمّا دفع رومة الى اظهار ما اظهرته من العطف على مدينة بيريت ؟

لقد خصّ الاستاذ بول كولينه بتاريخ المدرسة الفقهية في بيريت كتاباً يعتبر خاتمة الابحاث في الموضوع . وهو يرى ان سبب تأسيس هذه المـدرسة ، وهي اقدم المدارس الفقهية واوسعها شهرة ، يعود « الى اهمية بيريت السيـاسية من حيث كونها مفتاح الشرق ، والى اهمية مرفأها الاقتصادية . » على اني اتردّد هنا في اتباع رأي الاستاذ العالم . فلم تكن بيريت من جهة الاهمية السياسية ومن جهة كونها مفتاح الشرق خاصةً ، لتقابل بانطاكية العاصمة السورية البـديعة ، المدينة الثالثة في الامبراطورية جمعاء . ثم ان الـدور السياسي الـذي كان يمثّله مرفأ بيريت على عهد الرومانيين كان دورًا ثنويًا لا يوازي في شيء اهمية مرفأ صور حيث كان يقيم دائمًا حاكم فينيقية . وهنا لا بدّ من القول ان قرب جبال لبنان التي تكوّن عنصرًا قويًا من عناصر بيريت الفتانة ، لم يكن ليهيئ المدينة لتكون « مفتاح الشرق » او منفذًا للداخلية . وهو ما يظهر واضحًا لمن يتتبه للعقبات العديدة التي تقيمها سلسلتا لبنـان امام المواصلات بين ساحل بيروت

وداخلية البلاد . هذا ولست لانكر ما كان لبيريت من الاهمية النسبية في السياسة والاقتصاد ، على انني لا اعتقد ان هذه الاهمية تكوّن السبب الوحيد في اختيار الرومان لها مجالًا لما اقاموا فيها من المؤسسات . بل ارى ان الامبراطور اغسطوس نفسه أُخذ بجمال الموقع وسحر المشاهد الفاتنة . ومن الشواهد على ذلك لقب السعيدة (Felix) الذي الصقه بها . وان وجود الجوالي الرومانية ، وما كانت تتمتع به المدينة من الامتيازات عملت على زيادة ازدهارها حتى تحوّلت مدينتنا الى جزيرة لاتينية محضة في هذا البحر الطامي من اليونانية الشرقية . فكانت بيريت رومةً صغيرة حافلة بمدارس القراماطيق اللاتيني والفصاحة اللاتينية ، مخرجةً ادباء كبارًا رفعوا مدة قرنين كاملين لواء الادب اللاتيني بعد عهد اغسطوس . ولم يلبث سكان هذه المدينة الرومانية المتشعرون بالحق الايطالي ، وهم حفداء الفنيقيين المشهورين بحذقهم واخذهم بالامور العملية ، ان شعروا بضرورة الاضطلاع بالشريعة الرومانية . وهكذا ، على ما نرى ، نشأت في اواخر القرن الثاني جامعة الفقه الشهيرة ، فحملت اسم بيريت حتى اقصى اطراف الامبراطورية ، واضافت الى جمال فنيقية ولبنان جاذبية العلم الفقهي حتى كادت تحتكره نوعاً ما .

يشهد بذلك القديس غريغوريوس التريتزي اذ يدعو بيريت « المدينة الشهيرة في فنيقية اللطيفة ، مركز الشرائع الرومانية . » وفي العصر نفسه نرى ذكر بيريت في « *Expositio totius orbis* » موصوفة بانها « مدينة وافرة الرغد فيها تعليم الحق اساس الفقه الروماني » . وكذلك قول ليبانيوس الخطيب الانطاكي الذي يدعوها « مدينة فنيقية الفائقة الاناقة » و« الفائقة الجمال » و« الكلية الجمال » . وهكذا سُنّت الطريق لجميع من كتب عن بيريت بعد هؤلاء ، حتى اصبح من المقرّر التقليدي انه كلّما ذكر اسم بيريت أُردف بنعت مرادف للجمال او الحسن او الاناقة او الظرف او ما شاكل ذلك بصيغة المبالغة او التفضيل . قد تقولون ان هذا من تأثير الاسلوب البيزنطي في المبالغة . ونحن لا ننكر ذلك . ولكن نلاحظ انه ما من مدينة اخرى في الشرق الادنى نالت مثل هذه النعوت . ومن الضروري ان نلفت النظر لشهادة الخطيب ليبانيوس المتضلع

من الثقافة اليونانية . فانه بينا يذكر محاسن مدينتنا ، يحتجّ بقوّة على ما تقوم به من جذب الشبيبة الدارسة الى معاهدها ، حتى ان طلّاب انطاكية انفسهم كانوا يقصدونها ، فيحدثون الفراغ حول منبر الاستاذ الخطيب . فهو يقرّع اعضاء مجلس الشيوخ في انطاكية قائلاً : « كيف لا تشمئزّون اذ ترون ابناءكم يركبون البحر كل سنة الى مدينة بيريت ؟ لقد قُضي على البلاغة وعلى اللغة اليونانية . حتى لم يبقَ من جاذب اليوم الا لغة الايطاليين وعلم الشرائع . » ولا يخفى ما في هذه الجملة المخلصة من فوائد اذ تدلّنا على انه في اخريات القرن الرابع كان تعليم الحقوق ، في بيريت ، يلقى باللغة اللاتينية . وظلّت بيريت تتمتع طويلاً بهذه الشهرة وبهذه النعوت ايضاً حتى اننا نرى اسمها في دستور الامبراطور يوستنيانوس مقروناً باعظم النعوت مبالغةً فهي « الفائقة الجمال » و« البديعة الحسن » وما شاكل *pulcherrima* » — «*splendidissima*» « *pulcherrimum oppidum* » — « *civitas* ـــ يُضاف الى ما تقدّم تعابير وصفية من نحو « ام الشرائع » و« مغذية الفقه » وما الى ذلك مما نراه في وثائق الدولة وفي وثائق الكنيسة ايضاً . وهو ما يجعل جمال بيروت مذكوراً ذكر الحقائق الرسمية المقرّرة في منشورات الحكومة كقانون يوستنيانوس .

فلنرجع بالفكر قليلاً الى تلك الجامعة القديمة ، ولنشكر اساتذتها العظام الخالدين الذين دعوا بحقّ « معلّمي المسكونة » . فبفضلهم دخلت مدينتنا في تاريخ العالم ، وبفضلهم حازت اكليل المجد والجمال .

(له صلة)